حول أزمة العقل المسلم المعاصر

تعقيب على ملاحظات د. يوسف القرضاوي والاستاذ محي الدين عطية

عبد الحليم محمد ابو شقة ★

- ١ -

اني اشكر للدكتور القرضاوي على ان اتاح لي الفرصة لمزيد من التوضيح لبعض جوانب أزمة العقل المسلم المعاصر . ومن خلال التوضيح أرجو أن أجيب على التساؤلات أو الاعتراضات التي وردت في تعليقه .

أولا : نعمة العقل ونعمة الوحي : أكد الدكتور نعمة الوحي وذكر انها اكبر واعظم من نعمة العقل وحذر من الغلو في تقدير العقل ثم قال ان التاثم من الخطأ ليس جرما وعرض لمسوغات التاثم .

أنها أكبر وأعظم من نعمة العقل وحذر من الغلو في تقدير العقل ثمم قال

لعل الدكتور القرضاوي قد خاف مغبة ردود الفعل فنتحول من اذلال العقل الى تقديس العقل ومن الوقوف الجامد عند الوحي الى نبذ الوحي ومن التاثيم المقعد عن الاجتهاد الى الجرءاة بغير علم ولا تقى . وهذا منه موقف صدق . ونسال الله أن يجنبنا جميعا الزلل ويقينا الانحراف يمينا

★ مدير دار القلم للنشر بالكويت

أو يسارا . ولكى يطمئن الدكتور الصديق ومعه القاريء الكريم اعيد تسجيل بعض الفقرات « من الخواطر » التي تؤكد حرصى على نور الوحى مع حرصي على يقظة العقل :

قلت ص ١٢ : « اذا كانت نعمة الايمان هي أعظم النعم فالنعمة التي تليها هى نعمة العقل ... » الا يدخل في نعمة الايمان الوسيلة التي بدونها لا نصل اليه . أي نعمة الوحى .

وقلت ص ١٣ : «وقد يتحرر العقل ... ومع ذلك قد يضل عن بعض الحقائق حقائق الغيب أو حقائق الواقع قد يكون تحرر من التقاليد لكنه لم يتحرر من الهوى فيضله هواه عن الايمان بالغيب .. وان من كمال التحرر التحرر من غرور العقل ذاته وايقافه عند حدوده ويعين على كمال التحرر التعليم ... تعلم الغيب من مظاهر الغيب ومن رسل الغيب ... وقلت ص ١٤ : « وبهذه الاجابات كان الدين سكنا للعقل كما كان الدين بشريعته مصباحا ينير للعقل واذا كان العقل لا يمكن أن يستغني عن ذاته فانه لا يمكن ان يستغني عن سكنه وعن مصباحه ، فبدون السكن يضطرب وبدون المصباح يضل ...وقلت ص ١٥ : « اذاكان هدى الله للانسان في أمور الغيب يأتي كاملا شاملا مفصلا حيث لا يستطيع العقل أن يكمل أو يزيد أو يفصل ، وانما يتلقى دون قهر أو تخبط فان هدى الله في أمور الشرع (في غير العبادات) ، يأتي ليقرر قواعد عامة وأحكاما محدودة أشبه بمنارات على الطريق » ... وقلت ايضا : « فالعقل الذكّي الواعي المتأمل هو الذي يتلقى هدى الله فيمزجه باستقصاء للواقع وحاجاته كما يمزجه بعلومه ومعارفه ثم يخرج للناس الخير الكثير ... »

ثم اني انتهز هذه الفرصة لاعرض لقضية أصلية في موضوع أزمة العقل المسلم وهي هل العقل والوحي قوتان متقابلتان أم هما قوتان متكاملتان ؟ وأرى أن نصحح المعادلة من أساسها فاذا كان مدعو التدين قد هونوا من العقل مقابل تعظيم الوحي وكان مدعو العلم قد هونوا من

الوحى مقابل تعظيم العقل ، فكلاهما واهم · وينبغي أن نرفع من شأن العقل والوحى معا شامخين متعاونين متكاملين (لا متقابلين) · واثقين أنه اذا اهتز أحدهما سقط الآخر لا محالة · فلن يستقيم فهم الوحي وتطبيقه دون عقل ولن يستقيم عمل العقلدون نور الوحى · أى دون عقل واع يقظ صادق ستنحرف بالوحى الاهواء · ودون الوحى المنير الهادي ستنحرف بالعقل الاهواء ·

ثانيا : عنصر الصراع في الحضارات :

اني اشارك الكاتب تماما في وجود الصراع السلمي الفكري بين الحضارات وهو ما عبرت عنه بالتفاعل والتبادل · وسبب اللبس أن الخاطرة حين انكرت الصراع قصدت به الصراع الحربي القتالي· والامثلة المضروبة عن الفتوح الاسلامية قديما وعن الاستعمار الغربي حديثا تؤكد هذا القصد ·

ثالثا : المسلمون الاوائل والانحرافات :

شكرا للدكتور على توضيحه أن الانحرافات والخرافات قد حدثت بعد القرون الاولى ، ومعذرة عن زلة قلمي وهنا أحب أن أشير الى زلة اخرى حيث ورد في ص ١٧ « فالامور التي جعلت ذلك الجهد العظيم موضوع تقدير الناس واعجابهم في صلته بظروفه الاجتماعية والثقافيةهي نفسها تقريبا الاسس التي ينتج عنها تجرده الى حد كبير من الصلة بالواقع اليوم » فتعبير « الى حد كبير » ليس على اطلاقه فقد يكون تجرد التراث من الصلة بواقع اليوم كبيرا في ناحية ضئيلا في ناحية أخرى · ومعذرة مرة أخرى ·

رابعا : أهى حضارة غربية أم حضارة عالمية ؟ ·

الخاطرة تشارك الدكتور الكريم أن الحضارة الحديثة سمتها الاصلية والغالبية هي المادية ولذلك دعت الخاطرة المسلمين الى ان يعوا·· « دورهم

الخطير الذي ينتشل هذه الحضارة من الحياة الآلية ومن الفراغ الروحي الاليم ٠ »

خامسا : العقل المعاصر والبحث في تراث السلف :

اذا كنت اسجل تقديري لملاحظات الدكتور السابقة فلا أملك الا أن اسجل أسفي البالغ لهذه الملاحظة بالذات ، لانها ذهبت بعيدا ٠٠٠ بعيدا نقل الدكتور مقدمة احدى الخواطر وهي « كلما أثيرت قضية من قضايا عصرنا قال ورثة الدين لننظر هل حدث مثل هذا في عصور أسلافنا ٠ أو قالوا لننظر ماذا قال الائمة السابقون في هذه القضية ٠ وقد نسى ورثة الدين أن لكل عصر خصائصه وظروفه ، وأن لكل عصر عماله وجنوده وكتابه وتجاره وحكامه كما أن له علماءه وأئمته ٠ وكما يحكم التجـــار والعمال والكتاب ظروف العصر كذلك يحكم العلماء والمفتين والأئمةظروف العصر ايضا ٠ »

ثم علق بالآتي : « والمقصود من هذا الكلام واضح حسبما ذكر بعد : وهو الا نحجر على علماء عصرنا ٠ ولا نهون من قدرهم ، ولا نسد فـــي وجوههم باب الاجتهاد والابداع٠ولكن المقدمة المذكورة ليستلازمةللوصول الى هذه النتيجة ، فهي مقدمة غير سالمة ولا مسلمة ٠فان البحث في تراث الأسلاف عن نظير لما وقع للاخلاف ليس عيبا ، ودراسة وجهات نظرهم في القضية المطروحة ـ ان وجدت ٠ ليس خطأ ٠ بل العيب والخطأ هو اهالة التراب على ميراث ضخم خلفته لنا عقول كبيرة ،طيلة قرون عديده ٠والبدء من جديد كانما ولدنا الساعة ! » واقول ياليت الأستاذ الكريم قد اضـــاف لما اقتطفه ثلاثة أسطر أخرى حتى تتضح المقدمة وتكون سالمة ومسلمة ٠ فقد جاء من الخاطرة بعد المقدمة التي نقلها الدكتور مباشرة : « **اذن لا يجوز لنا ان نقف في قضية من قضايا عصرنا عند ما قاله العلماء او المفتون والأئمة السابقون فاولئك انما هم ائمــــة عصرهم ومع تقديرنا لهم**

وافادتنا من جهدهم فينبغي أن يكون لنا نحن ائمتنا » فهل يعنى هذا أن نهيل التراب على ميراث ضخم خلفته لنا عقول كبيرة طيلة قرون عديدة والبدء من جديد كانما ولدنا الساعة ! ! ! ٠ ان كل ما تعنيه المقدمة بل نصت عليه نصا هو عدم الوقوف (أى عدم التقليد والجمود عند أقوال الأئمة السابقين) ثم ضرورة النظر والاجتهاد من قبل ائمتنا نحن ٠ ولا يمكن أن تعنى اهالة التراب والبدء من جديد وهى تنص على الافادة من جهدهم ٠ ثم ما الفرق بين قولى : « لا يجُوز لنا أن نقف في قضية من قضايا عصرنا عند ما قاله العلماء والمفتون والأئمة السابقون ، فاولئك انما هم ائمة عصرهم ومع تقديرنا لهم وافادتنا من جهودهم فينبغي أن يكون لنا نحن ائمتنا ٠ » وبين قول الدكتور الكريم : صحيح انه لايلزم علماء العصران ياخذوا باجتهادات السابقين ، لأنها ليست نصوصا ملزمة وانما هي افكار بشر ، يوخذ من كلامهم ويترك ، ولكن من اللازم أن ندرسها ونستنير بها ٠ » ولأزيد الامر تاكيدا أعيد تسجيل بعض فقرات من الخواطر ٠٠٠

قلت ٠٠٠ واذا كنا ندعو الى نبذ التقديس للتراث واخضاعه للدراسة النافذة ثم تجاوزه ٠٠٠ (أي لا بد اذن من الدراسة للتراث)

ان عبقرية التراث مثل عبقرية الفكر الحديث والعلوم الحديثة كل في مجاله عبقري ولكن حاملي التراث ـ في الاغلب ـ لا يعون ما يحملون لم يفهموه بعبقرية كما انشاه الاسلوب بعبقرية ولو فهموه كذلك لتجاوزوه ٠٠٠ والمطلوب منا عبقرية في الفهم كعبقريتهم في الانشاء ٠٠٠»
(وهل يمكن أن يكون هناك فهم عبقري بدون دراسة عبقرية أيضا !) ٠

وأخيرا نقول ان التراث واقع بين قاتلين ثلاثة مبغض يقتله بحقده عليه وجاهل يقتله باستهانته به وحامل له بغير حقه يقتله بمسحه له ٠ ٠ »
(اليس الانكار على الفريق الجاهل بالتراث يحمل ضمنا اقرارا بضرورة الدراسة والعلم) وأخيرا ٠٠ اذا كان من البديهيات التي يدركها العقلاء وقررها الدكتور في تعليقه ـ أنه في كل العلوم لا أحد يبدأ من فراغ ، فكيف

يكون حال من ينادي الى البدء من فراغ في مجال علوم الشريعة ؟ ! وسامح الله الدكتور الصديق ٠

ـ ٢ ـ

أشكر اولا للاستاذ محي حسن استقباله للخواطر ولصاحب الخواطر اما تمنياته بأن يحظى الفكر المطروح ببحث أو ابحاث مستفيضة فأرجو أن أوفق لتحقيق شيء منها في مقبل الأيام ولعل بعض الكتاب يرى أن الامر يستحق المشاركة فيتقدم ليضرب بسهم ٠

ويبقى أن أعقب على نقطتين اثنتين تعرض لهما المعلق الفاضل يقول الاستاذ محي : « ٠٠٠ فعندما تناول الكاتب قضية تحرر العقل ، وميز بين التعلم والحفظ والتقليد كنت أتوقع منه تعريفا علميا لكل من هذه المصطلحات اذ هي مدار البحث ، ولا يكفي في تمييزها قوله أن التعلم غذاء للعقل ، والحفظ مسخ للعقل ، والتقليد طمس للعقل ٠»

وجوابي أن لا بد من التذكير أولا بأن المقال مجموعة خواطر ٠٠٠٠ وعليه فلا مجال لتقديم تعاريف علمية لكل مصطلح يرد في الخاطرة ٠ لكن اذا شئنا الوضوح الذي يجعل الخاطرة مفهومة فأحسب أن المعنى يحدده الجو العام للخاطرة فضلا عما جاء بالنص فعن الحفظ جاء في نفس الخاطرة « ولكن ورثة الدين المقلدين يحجرون على العقل ويذلونه سواء بتضييق نطاق عمله وحصره في حفظ المتون ٠ » ٠٠ اذن المقصود بالحفظ هو حفظ المتون ٠ وعن التقليد جاء في نفس الخاطرة : « ٠٠٠ ولكن ورثة الدين المقلدين يحجرون على العقل ويذلونه ٠٠٠٠ بتقديس السابقين ، ومجرد تقديسك عقل الغير يؤدي الى الغاء عقلك أنت ٠ » كماجاء في

الخواطر بعدها مزيد من التفسير . في ص ١٨ « .. ومسخنا الانسان باخضاعه لتراث القرون فصار قزما أشلا يملك غير التسليم بل ونرفع رتبته كلما استمسك بالتقليد . » في ص ١٩ « وفرق بين أن يجتهد انسان رايه في أمر الله فيمضي به ويمضى معه على نور وبصيره أهل عصره أو بعض أهل عصره .. فهذا اجتهاد بشر وبين ان يجتهد انسان رايه في أمر الله ثم يمضي أناس كالانعام اجتهاده أبد الدهر كما يمضون أمر الله سواء . دونما نظر جديد واجتهاد جديد . »

وفي ص ١٩ ايضا ... « ثم اشتهرت المذاهب الاربعة وهجر غيرها فقصرت همم اتباعهم الا قليلا منهم فقلدوا بعدما كان التقليد لغير الرسل حراما بل صارت أقوال أئمتهم عندهم بمنزلة الاصلين وذلك معنى قوله تعالى« اتخذوا أحبارهم ورهانهم اربابا من دون الله . »

ويقول الاستاذ محي : « ... مما يدعونا الى الظن بأنه (أي كاتب الخواطر) لم يجد مجالا للاشارة الى المحاولات الجادة التي بذلها بعض المختصين القادرين على النقد العلمي الرصين لتلك النظريات ، وأن يبرزها كأمثلة ايجابية تكمل الصورة التي رسمها للموقف الاسلامي المعاصر من الفكر الانساني . » . وأحب ان اوضح أن الخواطر كانت تعرض لازمة العقل المسلم المعاصر .. وأظن أنه مما يعتبر أزمة فعلا أن يكون الأعم الاغلب في الكتابات الاسلامية حول نظريات داروين وماركس وفرويد من كتاب غير مختصين . ومع ذلك ارجو أن يدلني الكاتب الفاضل على كتابات اسلامية من مختصين وعلى أعلى مستوى من الاختصاص في نقد تلك النظريات . ولا أقول هذا تحديا وانما طلبا للمعرفة لي وللقراء فأنا في حاجة . وربما يشاركني بعض القراء نفس الحاجة – الى الاوضاع – على مثل تلك الكتابات العلمية الرصينة حتى نعيش لحظات في مناخ صحي .